قصة سيدنا يوسف عليه السلام

الثبات الأخلاقي:

هذه المشكلة موجودة في مجتمعنا العربي بشكل كبير وهي كما يقول الرسول ﷺ: «**يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً**»[1].

هناك أمثلة كثيرة من هذا التذبذب أن الرجل أو المرء منا يصبح صادقاً ويمسي كاذباً، ويصبح مخلصاً ويمسي خائناً لزوجته أو أخيه، ويصبح ويمسي وهو لا يعرف ما نهاية هذه الأخلاق.

الحمد لله أننا لم نصل إلى حد أن يصبح المرء فيه مؤمناً ويمسي كافراً وإلا كان على هذه الدنيا الخراب السريع والوصول إلى الهاوية.

في مجتمعنا العربي نرى أن التنازلات بالنسبة لأي شخص أصبحت سهلة: فمن السهل أن يخون الرجل صديقه أو زوجته، وأصبح من السهل أن يتقبَّل الرشاوي بل أصبح من الأمور السائدة، ومن السهل جداً أن يسرق ويكذب إلى أن يصل إلى حد القتل كما نرى في هذه الأيام.

---

(1) أخرجه **الترمذي** في (الحديث: 2195)، وأخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 2/ 391).

obeikandl.com

وعندما تسألهم عن السبب الذي أوصل هذا المجتمع إلى هذا الحد من الانهيار الأخلاقي يعودون بالسبب إلى الفقر، البطالة، العنوسة (أي تأخر الزواج بالنسبة للشباب والفتيات) وحتى عدم الزواج بسبب الأوضاع الاقتصادية وغيرها.

أما الارتفاع الكبير في نسبة الطلاق يعود سببه إلى التدنّي الأخلاقي، وهذا التدنّي الأخلاقي أيضاً يؤدي بالشباب إلى السرقة بحجة البطالة فهو يريد كسب المال، دون النظر إلى الوسيلة هل هي حرام أم حلال.

يقولون إن هناك ازدياد في نسبة ارتداء الحجاب بين الفتيات، وما الفائدة طالما أن الأخلاق تسوء أكثر فأكثر، هذا وحده لا يكفي، يقول بعض الشباب: إن لم أحصل على عمل بسرعة وراتب بكذا وكذا فسوف أضطر إلى السرقة، وإلا سأصاب باليأس والإحباط وسأقتل نفسي.

انظر إلى: «**يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً**»، يصبح الرجل أميناً ويمسي خائناً، يصبح الرجل مطيعاً لوالديه ويمسي عاصياً ويقتلهم آخر الليل لسببٍ ما في نفسه.

أين دعاة هذه الأمة؟ لماذا يشاهدون ما يحدث دون مبالاة يقولون لك نحن نصبر، لا هذا صبر سلبي، ونحن لسنا بحاجة اليه؛ بل نحن بحاجة الى صبر ايجابي.

كل الأنبياء كان صبرهم إيجابي

أجل كل نبي كانت دعوته لله باللسان ولكن أيضاً بالعمل

والجد، والمثابرة والتحدي والإصرار، والصبر الإيجابي أي: الطويل النفس، صبر بطريقة عقل وتخطيط.

لماذا لا نتفق الآن ويقول كل شخص لنفسه لو أن كل الناس سرقت أنا لن أفعل ذلك، ولو كل الناس خانت أنا لن أفعل ذلك، الإصرار والتحدي والثبات الأخلاقي مع الصبر الإيجابي هذا هو أمان هذه الأمة إلى النجاة.

لو أجمع الناس عامة على الكفر سأظل مسلماً مهما حدث، وهذا هو الحق، وأمل هذه الأمة لتبقى وتستمر وتقوى، لتقف أمام كل محاولات النيل منها بالسوء والإساءة إلى الدين الإسلامي.

قصتنا مع النبي يوسف قصة انهيارات أخلاقية أكثر من أن تكون معجزة نبي.

عندما تقرأ هذه السورة أي: سورة «يوسف» تشعر أنها تركز على الإنسان الذي صبر وثبت في الأخلاق، هي قصة مِحَنٍ متتالية وثبات أخلاق في مجتمع مليء بالانهيارات الأخلاقية، وفي قصتة توكل على الله سبحانه وتعالى.

وهذه القصة تركز على النبي الإنسان، وتركز على الصمود والتحمل والمأساة التي عاشها هذا النبي الذي هو مثال لكل شاب ولكل مؤمن.

يوسف مع أهله وإخوته:

لقد بدأ سيدنا يوسف حياته برؤية رآها وهو صغير فقال لأبيه:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾ [يوسف: 4]، فما كان من النبي يعقوب عليه السلام والده إلا أن قال له: لا تقص رؤياك على إخوتك. ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨﴾ [يوسف: 7، 8]، لقد نفخ إبليس الحقد والحسد بين يوسف وإخوته، فيوسف وأخوه الصغير فقط هما من نفس الأب والأم أما الآخرون فهم أشقاء، وكان سيدنا يعقوب يحبه كثيراً فبدأت الغيرة والحسد والبغض يدبّ في قلوبهم، هذه إحدى صور الانهيار الأخلاقي.

قال تعالى: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾ [يوسف: 9].

لقد عاشوا في ضلال مدة عشرين عاماً من جرّاء كلمة قالوها لوالدهم. انظر واحذر كل الحذر وأنت تتعامل مع والديك، فأيّة إساءة إليهم ستؤدي إلى غضبهم عليك فتندم بعدها كل الندم.

انظر الى الانهيار الأخلاقي هنا كيف وصل بهم الى حدّ القتل، لماذا يضربنا الله تعالى بقصّة سيدنا يوسف؟ لتكون عبرة لنا ولكم ولكل أمة في الحياة، وتصلح وتأخذ بأيدي الناس الى العمل الصالح.

قال تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ [يوسف: 10]، الجب يعني: البئر وليس بئراً عادياً؛ بل هو بئر

كبير وعميق جداً ومليء بالحيّات والعقارب ومظلم، وهذا كله من عمل الشيطان، ألقوه في بئر وفي صحراء بعيدة حتى لا يراه أحد، أي: لا تقتلوه بأيديكم وألقوه في مكان بعيد جداً حتى لا يعرف كيف يعود إلى والده، ثم يلتقطه بعض السيارة. قال تعالى: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾﴾ [يوسف: 10، 11].

إذن... كانت مجرد فكرة فأصبحت أداة تنفيذ، هذا هو الانهيار الأخلاقي، انظر إلى ما يجري حولك من التفكك والمصائب التي تحدث في مجتمعنا، ولو أن كل منا قال: إنني لن أفعل شيئاً يغضب الله، وثبت على موقفه لكان خيراً له، لو ثبت فقط مئة أو مائتان أو ألف شخص على أخلاقهم الحسنة سيكون هناك خير في هذه الدنيا، وإلا سيعم الفساد والانحلال.

قال تعالى: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [يوسف: 12، 13]، لماذا قال سيدنا يعقوب لهم هذا الكلام؟ لأنه عندما أخبروه عن المنطقة التي سيذهبون إليها عرف أنها منطقة صحراوية وتعيش الذئاب فيها.

وأخذوا يوسف إلى تلك المنطقة وكان عمره عشر سنوات، وبدؤوا بالتوغل في الصحراء، حتى لا يعرف العودة ثانية إليهم ولا يخرج منها أبداً، ثم وصلوا إلى ذلك البئر الكبير العميق جداً وكما قلنا فهو مليء بالحيّات، وجردوه من ملابسه كلها وتركوه عارياً

بدون أي شيء، وربطوه بحبل وأخذوا ينزلونه في البئر، إلا أن الحبل لم يصل إلى القعر فحملوه، ثم رموه وهذا يدل على أنه كان صغيراً في السن.

تخيّلوا هذا الانهيار الأخلاقي: يأخذونه إلى الصحراء ويضعونه في مكان بعيد جداً، ويرمونه في بئر مظلم مليء بالعقارب وينزعون عنه ملابسه دون أن يتركوا له شيئاً حتى يستتر به.

تركوه في البئر وهو يناديهم فيضحكون ويسمع ضَحِكَهُم الذي بدأ يختفي شيئاً فشيئاً كلما ابتعدوا عنه.

يقول أحد العلماء في الأثر إن سيدنا يوسف عليه السلام قال لهم: «يا إخوتي، إذا اجتمعتم فاذكروا وحشتي وإذا أكلتم فاذكروا جوعتي، وإذا شربتم فاذكروا ظمأتي، وإذا رأيتم غريباً فاذكروا غربتي».

قال لهم هذا لعلهم يُشفقون عليه ويرجعونه معهم.

والآن أصبح في قعر البئر وبقي فيه لمدة ثلاثة أيام وهو في ظلمة ووحشة وخوف شديد، لكنه وسط ذلك كله تحمل وصبر، ولم يفكر بالانتقام من إخوته رغم ما ألحقوه به من الظلم الذي عانى منه طيلة ثلاثين عاماً.

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: 15]، هنا بدأ يدعو الله ﷻ وهو في البئر الدعاء الذي علمه إياه والده النبي يعقوب منذ صغره، وبدأ يناجي ربه: «يا مؤنس كل فريد، يا مؤنس كل وحيد، يا صاحب كل غريب، يا ملجأ كل خائف، يا منتهى كل شكوى».

ماذا لو كنت مكان يوسف لثلاثة أيام في هذا البئر، وستفقد أهلك لمدة أربعين عاماً، حتى أنك لا تعرف بأنك سوف تعود إليهم يوماً، وإنك ستباع كالعبيد، وقد كنت ابن نبي معزز ومكرم وأنت الكريم ابن الكريم ابن الكريم، وكل ذلك بسبب ما فعله بك إخوتك!!! هل من الممكن أن تتخيّل كيف سيكون مستقبلك.

صبر سيدنا يعقوب:

وفي الجهة المقابلة تخيل الثبات الأخلاقي عند النبي يعقوب عليه السلام عندما قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ [يوسف: 18].

يا إخوة، يا أخوات، انظروا إلى هذه الأخلاق، إن قصة يوسف هي مَثل لنا وقدوة على الصبر والتحمل فتعلموا منه فهو أسوة حسنة.

يقول العلماء: إن الحزين إذا قرأ سورة «يوسف» سرّيَ عنه وعن حزنه، فلذلك جاءت كلمة «صبر جميل» مرتين في الآية، أي: صبر إيجابي.

يقول العلماء: إن فقدان أحد الأبناء من أكبر المصائب التي تقع للوالدين، وهذا لا يعرفه إلا الأمهات وهي أفظع المصائب، ولكن... انظر إلى سيدنا يعقوب ماذا قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: 18].

لو كنت مكان يوسف ستقول: سأنتقم منهم وأفعل بهم كما فعلوا وأكثر، وأشفي غليلي أو أنتقم من المجتمع وأسرق كما سرقوني وأخون كما خانوني، وهنا يضيع مستقبلك وستذهب إلى السجن وتضيع الأخلاق وينهار المجتمع.

أصر يوسف على إصلاح إخوته بطريقة صحيحة وسليمة، وهي: الصبر، هم أيضاً بشر ويمكن أن يخطئوا وسيصلحهم بطريقة راقية تناسب الإسلام.

تتابع الأحداث...

ثم مر بعض السيارة إلى ذلك البئر ليحصلوا على القليل من الماء فوجدوه وأخذوه معهم إلى المدينة وباعوه في السوق بثمن بخس أي قليل، ثم يشتريه العزيز ويبقى عنده إلى أن يصبح شاباً، ويُكاد له فيدخل إلى السجن، ثم يخرجه الله بإذنٍ منه ليفسر رؤيا الملك.

فعندما ذهب ليفسر رؤيا الملك عرفوا أنه رجل حكيم، اقترح عليهم أن يزرعوا ويحصدوا ويخزنوا الطعام إلى أيام الجفاف والجوع، عند ذلك وضعه الملك وزيراً للاقتصاد في مصر.

يوم اللقاء

وكان إخوته ووالده يعيشون في فلسطين، وبدأت كل تلك الدول من حول مصر تعاني من الجوع، فيذهبون إلى أخيهم في مصر، انظر إلى الذي ظُلم من إخوته وصبر على ظلمهم كيف أعزه الله، لأن الله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: 49]، ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف: 90].

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ

مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يوسف: 58]، هم لم يعرفونه؛ لأنه عندما تركوه كان صبياً صغيراً عمره عشر سنوات، وها هم يقفون مع حشد كبير من الناس ويمدون أيديهم لأخيهم ليعطيهم الطعام، انظر إلى الثبات الأخلاقي.

يا شباب، كلما كان الاختبار شديداً وصعباً وقاسياً يكون الصبر أقوى وأشد والثبات أقوى والأخلاق أفضل.

لو أن كافة الناس سرقوا لا تسرق، ولو أنهم غشوا في الامتحانات لا تغش؛ لأن الدنيا دار اختبار.

يا شباب، اتقوا الله واعلموا أن الله موجود، لو كل الناس حادوا عن شريعة الإسلام فاثبت أنت.

خطة يوسف:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: 59]، كانت خطته إذا أعطاهم من الطعام فلن يعودوا إليه مرة أخرى، لذلك تعمد أن لا يعطي إخوته شيئاً من الطعام، فهم عندما حضروا إليه جلبوا معهم بعض الهدايا والبضائع مثل السجاد والمنسوجات أي: بضاعة مقابل الطعام الذي سيحصلون عليه وكانت هذه من ضمن الخطط والإصلاح التي أسسها سيدنا يوسف.

وكان من عادة يوسف أنه كلما أتى إليه وفد من الوفود يحدثه ويسأله من أين أتى، أي: من أي بلد ومن أي عائلة وكم عددهم، فعندما جاء دور إخوته وتحدث معهم عرف منهم أن لهم أخ بقي مع والده فعندما أحضروا بضاعتهم قال لهم يوسف: ائتوني بأخ لكم من أبيكم.

وقال لهم: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾، فبدأ يوسف بإغرائهم بأن ائتوني بأخيكم وأنا أعطيكم طعام زيادة، وقالوا له: إننا لا نستطيع أن نحضر لك أخانا؛ لأنهم يعلمون أن والدهم لن يعطيهم إياه جزاء ما فعلوا بأخيهم يوسف في الماضي.

فأجابهم: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾ [يوسف: 60]. أي: إن لم تحضروه فلا طعام لكم عندي بعد الآن. ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [يوسف: 61]، أي: سنحاول إحضاره بطريقة ما، ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يوسف: 62].

أمر فتيانه ـ أي: مساعديه ـ أن يعيدوا إليهم البضاعة التي أحضروها معهم ليبادلوا بها الطعام، وعندما يعودون سيجدون بضاعتهم رُدت إليهم حتى يعودوا إليه مرة أخرى.

فلما عادوا إلى والدهم يعقوب قالوا له: انظر إن بضاعتنا ردت إلينا، وانظر إلى هذا الوزير الكريم والطيب فتشجع يعقوب وأرسل معهم أخاهم.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [يوسف: 69]، شغل يوسف إخوته بالبضاعة وأخذ أخوه إلى مكان جانبي، وقال له: لا تخف أنا أخوك يوسف وأريد منك أن تساعدني على تنفيذ خطتي، لكي أُعلم إخوتي درساً في الأخلاق.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: 70]، أي: بعد أن جهزهم بالطعام وضع كوب من الذهب ـ وهو كان للملك ـ في رحالهم دون أن يشعروا، ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾، فأذن مؤذن أنهم سرقوا، أي: لقد تم سرقة كوب الملك ومن يأتي به له حِمْلُ بعير وأنا به زعيم، ولكنهم قالوا: لقد علمت أننا لم نأتِ لنفسد في الأرض وما كنا سارقين، ﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾، أي: قالوا له: إن وجدت الكوب عند أي أحد منا اتخذه عبداً أو ضعه في السجن. ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ﴾، فلما فوجئوا بذلك ردوا عليه وقالوا: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ﴾ [يوسف: 77]، انظر إلى الانهيار الأخلاقي، هو يستطيع أن يضعهم في السجن بعدما ظلموه كل ذلك الظلم، فقالوا له: إن له أباً وهو شيخ كبير فلتأخذ مكانه أي واحدٍ منا، فنحن لا نستطيع أن نعود إلى أبانا من دونه، انظر إلى نتيجة الصبر، انظر إليهم بدؤوا يستعطفونه حتى لا يأخذ أخاهم، انظر إلى الثبات: تحولوا من إخوة أشرار إلى إخوة لطفاء دون أي إهانة أو ضرب، فقال لهم: معاذ الله أن نأخذ من لم نجد متاعنا عنده. ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ﴾، فلما يئسوا منه ولم يجدوا حلاً آخر، قال كبيرهم: ألم تعلموا أن أباكم أخذ منكم ميثاقاً في الله، ومن قبل فرطتم في يوسف فإني لن أبرح هذه الأرض ـ أي: مصر ـ حتى يأمر أبي أو يحكم الله.

العودة إلى فلسطين:

ثم عادوا إلى أبيهم يعقوب في فلسطين وأخبروه بما حدث وقدّموا له الدليل؛ لأنه لم يصدقهم وبدؤوا يسافرون من فلسطين إلى مصر، وبالعكس دون جدوى ثم قالوا له: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ [يوسف: 82، 83].

انظر الى الوالد كيف يستعين بالصبر بعد كل مصيبة؛ لأنه مؤمن بالله ويعلم أنه لن يُضيّع صبره.

قال تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ [يوسف: 84]، قالوا له: ألا زلت تتذكر يوسف وتذكره وأنت في هذا الحزن، قال لهم: بل أشكو بثي وحزني إلى الله، وهنا نتذكر فلسطين، وا أسفاه على فلسطين، أشكو بثك وحزنك إلى الله، كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما يقرأ هذه الآية يبدأ بالبكاء.

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: 87]، ثم عادوا إلى أخيهم ودخلوا عليه وقالوا له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: 88]، هنا

قد اكتمل الدرس فهم قد ذُلُّوا فعلاً وتعبوا كثيراً، فأحضروا له بضاعة مختلفة ومتنوعة حتى يتصدق عليهم بالطعام، فرد عليهم يوسف: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾، أراد أن يذكرهم بما فعلوه به بطريقة لينة، ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ﴾ [يوسف: 90]، انظر إلى ثبات الأخلاق ونتائج الصبر فقد منّ الله عليهما وأعطاهما جزاء ما صبروا هو وأخيه ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أراد أن يعطيهم الدرس هو الكريم ابن الكريم ابن الكريم. ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾، أي: أنت أفضل منا عند ربنا، لقد فضَّلك الله علينا وأعطاك جزاء صبرك وعملك، ونحن الآن نعترف بأخطائنا، فردَّ عليهم يوسف: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾، أي: لا خوف عليكم الآن فأنتم في أمان، فارجعوا إلى أبيكم بقميصي هذا وارموه عليه يعود بصيراً ويأتي قومكم أجمعين. ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾، أي: بعد ثلاثون عاماً من الغياب احتضن والديه وإخوته وكان اللقاء الجميل، واجتمعت العائلة من جديد ورفع والديه على العرش. ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّاۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾، انظر إلى ثبات الأخلاق وإلى أدب الكلمات، هو لم يقل له: إن إخوتي وضعوني في البئر كي لا

يجرح إخوته، ولم يقل لهم: إنني أتيت بكم من المجاعة بل من البدو، وقال لهم: إن الشيطان هو الذي نزغ بيني وبين إخوتي حتى يبقى حب إخوته في قلبه بعد أن جمعهم الله.

تعلَّموا بثبات الأخلاق والصبر الإيجابي؛ ولو استسلم الجميع للشر والمعصية تمسَّكوا بالعقل والعلم، فقد رأيتم من خلال استعراضنا لقصة سيدنا يوسف مع إخوته نتيجة ذلك كله.

أيها الإخوة، اثبتوا على أخلاقكم، فلو ثبت على أخلاقه شخص واحد من كل حيّ وشارع سيبقى هناك أمل، ولو صدق وانهار كل الناس وفسدت أخلاقهم فانتظروا الساعة.

جاء رجل إلى النبيّ ﷺ وقال له: متى الساعة؟ قال: «**إذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة**»[1].

والدليل على أكثر من ذلك ما أنزله الله في كتابه العزيز. ألم تلاحظوا أن الله بعث في كل قوم أنبياء ورُسُلاً، ورغم ذلك أهلك أقواماً ولم يهلك أخرى؟

لماذا أهلك الله قوم عاد وثمود وصالح ونوح؟ ولم يهلك قوم يونس وقوم إبراهيم هل هي مصادفة أم هناك سبب؟

قوم أهلكهم الله بالريح الصرصر وقوم بالطوفان، الإهلاك لا يحدث لأجل الكفر فقط؛ بل من أجل الفساد الاجتماعي

(1) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 59)، و(الحديث: 6496)، وأخرجه **البيهقي** في «السنن الكبرى» (الحديث: 1/ 118).

والأخلاقي، فقوم إبراهيم كفروا ولكنهم لم يفسدوا أخلاقياً لذلك لم يهلكوا، أما قوم لوط فكفروا وفسدوا أخلاقياً فأهلكوا.

كأنَّ المعنى: أن الاثنان إذا وقعا أي: الكفر والانهيار الأخلاقي والاجتماعي يحصل الهلاك. يقول الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣﴾ [الفجر: 6 ـ 13].

قاعدة الإهلاك إذن: كفر وفساد أخلاقي واجتماعي، فلا يوجد أمل في إصلاحهم. وهذا ما يحدث معنا الآن، ولكن لماذا لم يهلكهم الله؟! لأنه اختار لهذه الأمة بأن تصلح نفسها بنفسها؛ ولأنه سيخرج من هذه الأمة المصلحون من علماء دين ودعاة ورجال ونساء وشبان وشابات؛ فالإصلاح لم يعد دور الأنبياء فقط؛ بل دور كل فرد من هذه الأمة.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: 110]، إذن لم يعد هناك إهلاك؛ لأنكم تصلحون أنفسكم من الداخل وتصلحون الناس، يجب أن يكون هناك من يقول: لو انهار كل فرد أنا لن أنهار، ولو أصبح الكل خائناً أو سارقاً أو زانياً أنا لن أصبح كذلك، لو كل الفتيات تزوجن زواجاً عرفياً لن أقدم على ذلك، عند ذلك سنبصر الأمل في شباب اليوم بثباتهم على كل تلك الأخلاق الحميدة.

ثبات يوسف عليه السلام

رأينا عندما بدأنا بسرد قصّة يوسف كيف كان ثباته مع إخوته الحاقدين والحاسدين عندما رموه بالبئر، وغربته عن أبيه وأهله، ومحاولة قتله وهو في عمر العاشرة ومع ذلك ظلّ على ثباته الأخلاقي، ولم ينتقم منهم، ولم ينتقم من المجتمع؛ بل عمل على إصلاحهم.

الفساد الاجتماعي والأخلاقي وتعدده:

لقد تعدد الفساد الاجتماعي في قصة يوسف، مرة في العائلة، ومرة في العلاقات الزوجية، ومرة في العمل ومرة في الحياة.

ولحكمة لا يعلمها إلّا الله، أن تجد كل أنواع الفساد الاجتماعي والأخلاقي في قصة سيدنا يوسف، لعله لتتعلّم أن تثبت أمام أي محنة تواجهك.

فيجدر بكل من يواجه محنة في حياته أن يتذكر قصة هذا الشاب الذي مرّ بكل تلك المحن، وعَرَفَ كيف يخرج منها بنجاح.

بداية المحنة:

بدأت المحنة عندما رماه إخوته في البئر، وهو بئر عميق مظلم مليء بالحيّات والعقارب في آخر الصحراء، وبقي فيه لمدة ثلاثة أيام، وهو ينادي الناس، كان لا بد أن ينهار وينقم على مجتمعه، ثم جاءت سيارة، قال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ [يوسف: 19]، وبينما هو في ذلك البئر مرَّ مسافرين في طريقهم

من الشام إلى مصر فوصلوا إلى مكان البئر، وهذه من معجزات الله تعالى؛ لأنه جعلهم يخطئون في الطريق ليصلوا إلى ذلك المكان.

فأرسلوا شخصاً معهم ليحضر لهم الماء من البئر، فبدأ بإنزال الدلو حتى وصل إلى قعره ثم أخذ يرفعه، فتعلق يوسف بذلك الدلو، وما إن وصل الدلو إلى الأعلى حتى رأى الرجل غلاماً جميلاً وصغيراً أمامه ثم قال: ﴿يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ﴾، أي: فرح فرحاً شديداً وقال: يا بشرى، وأول ما تبادر إلى ذهنه أن يبيعه فسوف يأتيه بالمال الكثير، وهذه من إحدى علامات الانهيار الأخلاقي.

كان من الممكن أن يسأل ذاك الرجل يوسف عن أهله ومكان إقامته حتى يعيده إليهم، لكن الانهيار الأخلاقي جعله يقول لنفسه: لماذا لا أبيعه؟ ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾، أي: بمعنى غطوه وربطوه بالحبال، وأسروه: من السر حتى لا يراه أحد ممن يعرفه وظل على ذلك لمدة عشرة أيام.

انظروا كيف سيبيعونه وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم!! ومع هذا فهو صابر وثابت.

يا شباب، اثبتوا واصبروا حتى لو ظُلمتم، أو حتى لو فشلتم مرة واخرى، لا تنهاروا مهما كانت هذه الدنيا ظالمة بل اثبتوا واصبروا، فالصبر والثبات مفتاح النجاح لحياتكم.

قال تعالى: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖۚ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾ [يوسف: 20]، أي: باعوه بثمن قليل لا يساوي دراهم معدودة، وكانوا يريدون أن يسرعوا في البيع حتى لا يعلم به أحد، انظر إلى المجتمع الظالم؟ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن

مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [يوسف: 21]، واشتراه وزير الاقتصاد في مصر في تلك الأيام، وكان اسمه: العزيز، وأخذه إلى زوجته وقال لها: أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً؛ فقد كان لا ينجب أطفالاً.

ويعيش يوسف في بيت العزيز حتى يبلغ من العمر الثانية والعشرين أو الخامسة والعشرين.

انهيار الحياة الزوجية

هنا بدأت الفتنة ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: 23]، هو الآن أصبح شاباً قوياً وجميلاً، بالإضافة إلى أنه أعزب، لقد وضع الله لنا في هذه الآية أصعب ما يمكن أن يواجهه الشباب في الدنيا، حتى لا يقول شاب: إنني شاب وأعزب ضعيف ولم أستطع أن أقاوم ذلك الإغراء.

هو أيضاً كان شاباً أعزباً، وهذه أخطر نقطة يواجهها الشباب الآن.

بالإضافة إلى أنّها ذات منصب، فهي زوجة وزير الاقتصاد في البلاد، هناك رجال يتأثرون بمناصب النساء، وهي جميلة طبعاً لأن الوزير لن يتزوج إلا امرأة جميلة، فكل الظروف مؤاتية لفعل الفاحشة، ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾، راودته أي: اقتربت منه شيئاً فشيئاً، سنة بعد سنة، يعني: الموضوع أخذ منها سنين. والتي في بيتها، أي: الذي يعمل عندها وهو خادم، إذن فالمعصية سهلة. وبعد عدة محاولات منها ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾، لم

يقل أغلقت؛ بل: غلّقت لتتأكد بأنها ستكون في أمان من الفضيحة انظر إلى الوضع المفعم بالإغراء والشهوة، إلى أن وصلت: إن كنت خجولاً فقالت له: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، انظر إلى الثبات في الأخلاق ورغم كل ما هو مهيأ له فجأة قال لها: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾، أي: أعوذ بالله ويقصد ربه خالقه ﷻ، ولكنها هي هنا لم تفهمه، ثم قال لها: إنه ربي ـ ويعني بها الرجل الذي رباه وهو زوجها ـ وهو الذي أكرمني ورعاني، فأنا وفيّ له ولن أخونه أبداً.

يا من تقعون في المعصية وتضرون زوجاتكم أو أزواجكم، يا من خُدعن من شباب وخَدعن آباءهم وأمهاتهم وتزوَّجن زواجاً عرفياً دون علمهم.

قال تعالى: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾، أي: إن كنت تستطيعين أن تخوني زوجك فأنا لا أستطيع أن أفعل ذلك بالرجل الذي أدخلني بيته، هذا هو ثبات الأخلاق، والذي أخطأ فليتب إلى الله ﷻ، أطلب من كل فتاة قد تزوجت زواجاً عرفيًا أن تمزق تلك الورقة حتى لا تنهار عائلتها. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: 24]، أما هي فانهيارها الأخلاقي لم ينته بل حاولت بشتى الوسائل أن تفعل الفاحشة وهمَّ بها تعني: أنه لم يستجب لها، وهي ليست معصية؛ لأن الله تعالى قال في آخر القصة: إنه من عباده الصالحين والمخلَصين، ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾، أي: أن الله تعالى ثبته بشيء أي: وهمّ بها لولا...

كان يستطيع أن يقول: همت به ولم يهم بها؛ ولكنه يريدنا أن نفهم: أنه بشر، وعنده شهوة إلى النساء، ولكنه كان مثالًا للقوة

والثبات اللذين استمدهما من إيمانه بالله تعالى، وخوفه من غضب الله عليه.

وهذا ممكن أن يحصل لأي فردٍ منا، والذي ثبَّته أنه رأى برهان ربه وهو النار، وهذا البرهان ممكن أن يراه أي واحدٍ منا، وهي ليست خصوصية ليوسف عليه السلام، يقول الرسول ﷺ: «**بينما أنا نائم فأتاني آتيان من الملائكة، فقالا: قم يا محمد، فقمت معهما فأخذاني إلى تنور كبير وضخم، وسمعت أصوات صراخ، فقلت: ما هذا؟ فقالا: انظر، فرأيت رجالاً ونساءً معلقين من شعورهم تأتيهم النار من أسفل منهم فقلت: من هؤلاء؟ قالوا: هؤلاء الزناة والزواني هكذا يعذبون إلى يوم القيامة**»[1].

هذا في عذاب القبر، أما يوم القيامة فالعذاب أشد وأقوى، وبرهان ربه حديث الرسول ﷺ: «**لأن يضرب أحدكم رأسه بمخيط من حديد خير له من أن تمسه امرأة لا تحل له**»[2].

والمس هنا لا ينحصر بالسلام واللمس باليد فقط، ولكن حتى نظرة الشهوة، إذن ارجع لثبات الأخلاق وتب إلى الله وعد إلى ربك. إن وسائل الإعلام الحالية ساعدت وتساعد على انهيار هذه الأمة.

ونحن نعرف أن أمتنا لن تهلك؛ لأن مهمتها الإصلاح وهي

---

(1) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (الحديث: 10/ 57).

(2) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (الحديث: 4/ 326).

تصلح نفسها بنفسها. قال تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، إذن فالله تعالى ثبته في لحظة الفتنة والفحشاء... المرأة تتزين أمامه، وهو ثابت يتذلل في الدعاء، اعبدوا الله وتذلّلوا إليه فسيقبل منكم ويتوب عليكم.

والسوء: تعني خيانة العزيز أي: زوجها، والفحشاء: خيانته لله سبحانه وتعالى. يقول الرسول ﷺ: «**يرفع لكل غادر يوم القيامة لواء**»[1].

أي: يؤتى بالغادرين يوم القيامة، وبيد كل واحد منهم لواء مكتوب عليه أنه زاني، وصوت وصورة الفاحشة التي قام بها، ويقف ممسكاً بها بيده، هل أنت متخيل الفضيحة؟! أما الذي تاب إلى الله فلن يحدث له ذلك.

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ [يوسف: 25].

انظر إلى الوضع الذي وصلت إليه المرأة من الإحباط، يركض يوسف ويسرع إلى أحد الأبواب ليهرب منها.

هذا هو الفراغ القاتل للمرأة، فالشيطان يجد في فراغ المرأة مجالاً واسعاً وبيئة خصبة كالبكتيريا تماماً: ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾، هو كان أسرع منها إلى الباب، وقدت قميصه من دبر، أي: قطعته من الوراء، أي: بدأ بفتح الباب وشدَّته من قميصه فمزّقته، وما إن فُتح الباب حتى وجدا زوجها العزيز أمامهما.

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 3/ 39).

قال تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾، عندما فُتح الباب ووجد العزيز أمامهما هو لم يقل شيئاً، وظل صامتاً أما هي وبكل وقاحة بادرت بالكلام وقالت لزوجها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: 25].

لم تطلب منه أن يقتله؛ لأنها لا زالت تريده وترغب فيه، ولكنها أرادت له السجن مع علمها أن مثل هذه الفعلة جزاؤها الموت في ذلك الوقت، وهنا خرج عن صمته وقال للعزيز: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾، وبدأ التحقيق في الموضوع، فأحضروا خبيراً وعالماً جنائياً: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يوسف: 26-27]، أي: إذا كان القميص مُزّق من الأمام فهي صادقة وهو كاذب، وأما إذا كان مُزق من الخلف فهي كاذبة وهو من الصادقين، وهذا من دلائل العلم الجنائي في القرآن.

وبالنظر إلى قميصه وإلى آثار التمزيق عرفوا أن القميص قُدَّ وقُطِّع من الخلف ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [يوسف: 28]، ماذا يفعل العزيز بعد أن ثبت كذب زوجته؟ انظر إلى الانهيار الأخلاقي الرهيب، وقف وقال ليوسف: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف: 29].

أي: يوسف ابتعد عن هذه الأعمال، أما أنت يا زوجتي استغفري لذنبك، وطلب منه أن لا يخبر أحداً بما حدث، وانتهى

كل شيء بهذه البساطة.

وظل يوسف يعيش ويعمل في منزل العزيز، الذي لم يحرّك هذا الأخير ساكناً؛ لأنه كان يخاف من الفضيحة وكان يخاف أيضاً على مركزه الاجتماعي ومنصبه في البلد.

انهيار مجتمع:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ [يوسف: 30]، وانتشر الخبر في المدينة عن طريق الخدم الذين يعملون عند امرأة العزيز، وتم فضحها ولكنّها لم تكترث.

قال تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، لقد راودت فتاها عن نفسه قد شغفها حباً، أمعقول أن تنشىء علاقة مع خادمها؟! أي: أن الفاحشة ليست مهمة، المهم أنه خادم وهي سيدته، هذه هي أفكار المجتمع الراقي الفارغ.

يقول النبيّ ﷺ: **«الغني الشاكر أحب إلى الله من الفقير الصابر»**.

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ [يوسف: 31]، فأرسلت تدعوهن إلى حفلة استقبال وأعدّت لهن كل الترتيبات وأدوات الزينة، وتجمعت النسوة وعندما بدأن بتناول طعامهن قالت ليوسف: اخرج إليهن كي يشاهِدْنك، فلما رأوه ورأوا جماله وقوته لم ينتبهن فجرحن أيديهن من شدة جماله، انظر إلى الموقف الذي

وقف فيه يوسف وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ [يوسف: 31، 32]. إذن... جُرحت أيديهن عندما رأوه بهذا الجمال، فقالت لهن: ألم يكن معي حق؟ فقالوا لها: نعم معك حق، يمكن أن تقول أنها هي لم تعجبه ولكن ألم تعجبه أي واحدة منهن؟

وتحولت الفتنة من امرأة واحدة إلى عدة نساء.

تأتي امرأة إلى رسول الله ﷺ وتقول له: يا رسول الله، إني أُصرع فادع الله لي ألا أصرع، قال لها الرسول ﷺ: «**إن شئت أدعو الله لك وإن صبرت لك الجنة**»، قالت: أصبر، ولكنني عندما أُصرع أتكشف فادع الله لي أن لا أتكشف. قال الرسول ﷺ: «**أما هذه فنعم، يا رب فلا تتكشف**»[1]، فكانت تُصرع ولا تتكشف.

وقالت السيدة مريم عندما رزقت بولد رغم عدم زواجها واتهمت بالفاحشة: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: 23]. والسيدة مريم هي رمز العفة والشرف والأخلاق.

وأنت أيها الشاب كلما رأيت المعصية ضع نُصب عينيك قصة يوسف. أما إذا عصيت فارجع إلى الله وتب، انظر إلى القوة التي تحلّى بها يوسف في محنته مع هذه المرأة وثباته كي لا يصل إلى المعصية.

(1) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 1/ 346).

وقد فضَّل السجن على إتيان الفاحشة وهو القائل: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: 33]، السجن هو أفضل وأحب إلي مما يطلبونه مني هؤلاء النساء، فذُلّ السجن ولا ذُلّ المعصية. ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف: 34]، ومنذ ذلك اليوم وبعد أن دعا ربه لم تعد أي امرأة تفتتن به، وتحول إعجاب النساء بجمال يوسف إلى إعجاب بهيبته وحكمته، فسبحان مغير القلوب.

أحياناً ترى أشخاصاً يستمرون في المعصية طيلة عشرين عاماً وفي يوم واحد يتوبون ويدعون الله بأن يغفر لهم وبإخلاص فيقبل الله التوبة منهم ويتوب عليهم. ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾ [يوسف: 35]، أي: قالوا وقالت هي أيضاً: خذوه إلى السجن وهذا غلٌّ وظلم منها؛ لأنه لم يستجب لها وسجن دون محاكمة لمدة غير معروفة قيل: تسع سنين، إلى أن جاء يوم رأى فيه الملك رؤيا وأراد تأويلها فقال: ائتوني بمن يفسرها لي، فأبلغوه أن هناك رجلاً في السجن يعرف تفسير الرؤيا فقال الملك: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ﴾ قال لهم يوسف: ارجعوا إلى الملك واسألوه عن النسوة اللاتي قطعن أيديهنّ، لأنه أراد أولاً أن يثبت براءته قبل أن يخرج من السجن، ﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ [يوسف: 50]، إذن هو لم يوافق على الخروج من السجن لمجرد الخروج ولكن همّه الأكبر كان: براءته.

ولم يقل لهم اسألوا زوجة العزيز؛ لأنه لم يُرِد الانتقام من أحد، بل: اسألوا النساء اللاتي قطعن أيديهن وهذا ذكاء منه؛ فهو يريد الإصلاح بطريقةٍ تجعل الملك يعرف فحوى القصة فذهب الرسول إلى الملك وأخبره، فسأل الملك النساء اللاتي قطعن أيديهن: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: 51]، وهن نساء الطبقات الراقية. ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾، إذن النساء تُبْنَ إلى الله بعد مرور تسع سنوات وخرجت من بينهن امرأة العزيز وقالت للملك: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَاوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، ذلك ليعلم ـ أي: زوجها ـ أنها لم تخنه وأن يوسف هو الصادق، وتابوا جميعاً إلى الله.

دورنا في الحياة وكما أراده الله ﷻ هو الإصلاح في هذه الأرض فهو القائل: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]، أمر الله ﷻ الملائكة الكائنات كلها أن تخضع لهذا المخلوق الذي خلقه، ومن أجل ذلك غضب إبليس وعصى؛ لأنه أراد أن يكون هو الخليفة، لكن الله ﷻ اختار آدم. لذلك نحن خُلقنا على هذه الأرض من أجل أن نصلح فيها، وقصص الأنبياء كلها من أجل ذلك، توكلوا على الله، وانظروا إلى ثبات الأخلاق والإصلاح والصبر الإيجابي، فقصة يوسف هي الإصلاح في الأرض مع الثبات الأخلاقي ومع الصبر الإيجابي، فكلما توغّلنا في القصة شعرنا أن القرآن شرح كل زاوية من زوايا العلاقات الاجتماعية.

الانهيار الاقتصادي

في هذه السورة رسائل كثيرة، منها رسالة للذين يعانون من

البطالة، فبعد أن دخل يوسف السجن لمدة تسع سنين خرج منه ليقود العالم العربي إلى الإصلاح الاقتصادي: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾ [يوسف: 35].

أي: سجن لمدة غير محدودة لا يعرف ما هو مستقبله، بعد أن فقد عائلته ثم بيع واشتُريَ كالعبيد، فالرجل سجنه دون محاكمة بتهمة شرف، وهذا شيء صعب، ماذا تفعل لو كنت مكانه؟! كنت ستُدمر وتنتقم من هذا المجتمع، لكن يوسف لم يفعل ذلك؛ لأنه مصلح.

وأتوجّه إلى الشباب في ظل الأزمة الاقتصادية التي نعاني منها، إلى إحصاء المِحَن التي مر بها يوسف:

1 ـ حقد إخوته وحسدهم له: اثنا عشر سنة.

2 ـ فراقه عن أهله: أربعون سنة.

3 ـ محاولة قتله وهو في عمر عشر سنوات، وثلاث سنوات في البئر.

4 ـ هجرته من بلده وإقامته في أرض غريبة: ثلاثون سنة.

5 ـ العبودية والرق هو الكريم ابن الكريم: عشرون سنة.

6 ـ دخل السجن: تسع سنوات.

لنجد أن يوسف عليه السلام لم يستمتع بحياته فقد قضاها تارة في

السجن وتارة بالخدمة وهو بعيد عن أهله، لماذا كل هذا الظلم؟ من أجل أن يكون عبرة ومثل لنا ولكلّ الناس على مرّ السنين.

لو كنت مكانه وأقمت في السجن سنة واحدة وأنت بريء، كيف ستكون حالتك النفسية؟! كآبة، حزن، بل أكثر من هذا فمن يُسجن يتحول الى مجرم، فهل سيغير السجن يوسف؟

دخل السجن ومعه فتيان، ولقد سُجِنَا لأنهما اتُّهِمَا بمحاولة قتل الملك تسميماً، وكان أحدهما يعمل في قصر الملك، ويسقي الملك خمراً، أما الآخر فكان يعمل خبازاً وهو الذي يصنع الطعام للملك، وكان أحدهما بريئاً والآخر مذنباً.

قال أحدهما ليوسف بعد أن رأى حلماً: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾ [يوسف: 36]، في ذلك الوقت كانت جرائم الشرف من أعظم الجرائم، وعندما دخل يوسف إلى السجن بهذه التهمة لم يروا فيه ذلك الرجل الذي يستطيع أن يرتكب الفاحشة، فذهبوا إليه ليسألوه عن رؤياهم؛ فقد كان يعامل الناس ـ أي: المساجين ـ معاملة حسنة ويتودد إليهم، هو مصلح في الأرض مثل جده إبراهيم الذي كان بدوره أيضاً مصلحاً.

من أجل ذلك ذهبوا إليه؛ لأنهم وجدوا فيه الأخلاق الحسنة والمعاملة واللطف والأدب. وبدأوا بسرد رؤياهم على مسمعه، فعرف من كلامهم أن واحداً منهما سيموت والآخر سيعيش.

يريد أن يعلّمنا أن الذي يصلح في الصغيرة سيُستَخدَم في الكبيرة. ومشكلة الشباب في عصرنا أنهم يريدون الوصول الى المراكز العليا دفعة واحدة دون أن يصعدوا درجة تلو الدرجة، وهذا لا ينفع بل عليه أن يبدأ بالدور الصغير حتى يعرف كيف سيقوم بالدور الكبير.

وبدأ يوسف معهما بوضع خطة ذكية، فهو لم يقل لهما مباشرة أن واحداً منكما سيموت والآخر لا.

قال لهما: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ﴾ [يوسف: 37]، بدأ يتكلم معهم بأرزاقهم ثم شيئاً فشيئاً بدأ يكلمهم عن الدين ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [يوسف: 38]، كان دائماً ينادي ويقول لهم: يا صاحبي السجن، انظر إلى الأدب وكيف يتعامل مع الناس ويحبب الناس إليه، إذن سماته جميل المظهر ومؤدب ويعرف كيف يعامل الناس، وحكيم ومحسن وله موهبة تفسير الأحلام ويعرف كيف يدخل إلى قلوب الناس. وبعد أن دعاهم إلى الله الواحد بدأ يفسر لهما الرؤيا. ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: 41].

لم يحدد من منهما سيموت ومن منهما سيظل على قيد الحياة، فقال لهما: واحد منكما سيعود إلى عمله في قصر الملك، وأما الآخر فسيقتل وتأكل الطير من رأسه، كان سيدنا يوسف وهو في السجن يصلح المساجين فطلب ممن سيخرج من السجن بأن يخبر الملك عن قصته.

وبعد ثلاثة أيام قتل الأول وخرج الآخر من السجن وعاد إلى عمله في قصر الملك، ولكنه نسي أمر يوسف، وبقي يوسف في السجن لمدة تسع سنوات، إلى: أن رأى الملك رؤيا: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ [يوسف: 43]، أراد الملك أن يعرف تفسير هذه الرؤيا فطلب أن يحضروا له من يفسرها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾، عرف الملك أن هذه الرؤيا مهمة لمصر فجمع كل العلماء والكهنة في احتفال عام حتى يتم تفسيرها ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾، في بادىء الأمر قالوا: إنها كوابيس ولكن لا نعرف تفسيرها، وقال رجل منهم ـ وهو الذي كان في السجن مع يوسف ـ: إني أعرف رجلاً يستطيع أن يفسّر هذه الرؤيا.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾، وذهبوا إلى يوسف في سجنه وكان في مكان بعيد عن المدينة وقال له: يوسف أيها الصدِّيق، أفتنا في هذه الرؤيا: سبع بقرات سمان يأكلهنّ سبع عجاف.

ويبدأ يوسف بتفسير الرؤيا فيقول: سيكون هناك مشكلة في الثروة الحيوانية وستمرّ عليكم سبع سنين خير وسبع سنين عجاف. ثم يقول لهم: أكثروا الإنتاج وابذلوا كل طاقاتكم واعملوا أضعاف أضعاف الإنتاج تزرعون دأباً وتحصدون، لأنه ستأتي سنين عجاف.

قال تعالى: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾، أي: تبقى البذور في سنبلها حتى

لا تسوس ويتم تخزين هذا الإنتاج للأيام العجاف وقللوا من استهلاك الطعام.

وضع خطَّة لترشيد الاستهلاك لمدة سبع سنين، وسياسة تخزينية متميزة حتى لا يسوس الأكل، كان مصلحاً ورجل اقتصاد ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾، سبع سنين لزيادة الإنتاج مع ترشيد الاستهلاك وتخزين المحصول للسبع السنين العجاف، ثم تخزين البذور كمواد أوليَّة ليجدوا ما يزرعونه في المستقبل.

ان هدف القصة الإصلاح وثبات الأخلاق، لقد ظلموه ووضعوه في السجن ظلماً، لو كنت مكانه وانت في السجن الآن وجاؤوا اليك لتصل لهم هذه المشكلة ويرسل اليك الملك ماذا ستقول؟!

ستقول: لا بدّ أن أنتقم، أو تقول لهم: أخرجوني أولاً ثم أُفسر لكم الرؤيا، وبعد أن تخرج من السجن لا تنفّذ ما وعدتهم به لأنك تريد الانتقام.

ولكن سيدنا يوسف ـ ورغم كل ما حصل معه ـ لم يفعل كل هذا مع العلم أن أهل مصر لم يؤمنوا، فلم نجد في سورة يوسف ذكر لإسلام أهل مصر، وهو لم يجبرهم على أن يسلموا وكأن الله يقول لنا أن الأمر ليس مرتبطاً بعضه ببعض؛ لأن الإصلاح هو للإصلاح وأن تنقذ أرواح الناس هو أمر مهم، وبعد كل ذلك يُتهم الإسلام بأنه دين إرهاب. ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ [يوسف: 54]، بعد أن وجده الملك صاحب أدب وأخلاق وصاحب

خطة اقتصادية طلب أن يخرجوه من السجن، ولكن يوسف رفض وأراد أن لا يخرج دون أن تثبت براءته من التهمة التي من أجلها دخل السجن، فقال: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾، وبعد أن ثبتت براءته كما ذكرنا سابقاً خرج من السجن، واستخلصه الملك لنفسه وجعله وزيراً للاقتصاد والمال في البلاد لحكمته وأمانته: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾، هو لم يضع الخطة فقط، ولكنه أراد تنفيذها بنفسه، ونجحت الخطة. وحصل ما فسّره يوسف لرؤيا الملك، وحلّت الأزمة بالبلاد العربية ولكن مصر هي البلد الوحيد الذي لم تؤثّر فيها الأزمة وأصبح عندها فائض غلال وبذور وانتشر الخبر بين الدول المجاورة حتى وصل إلى فلسطين، وإلى إخوة يوسف.

وعندما تحدث المجاعة:

1 ـ تبدأ أعداد المتسولين بالازدياد.

2 ـ يحتكر التجار البضائع، وينتشر الجشع بين الناس.

3 ـ تنتشر البطالة بين الشباب والعمال.

ففكر سيدنا يوسف ماذا يفعل؟ وسّع خطته الاقتصادية، وأصبح الفائض في مصر هو ملك لكل الناس ويحق لأي كان أن يحضر ليأخذ الطعام، ولكن حدِّدَت الكمية بقدر بعير واحد فقط حتى يتمكَّن الجميع من الحصول على الطعام ﴿جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ [يوسف: 72]، وجعل لكل شخص بطاقة خاصة به حتى يُعرف من خلالها أنه حصل على الطعام كي لا يحصل أي نوع من

الفوضى، وبدأ يوسف يستقبل كل الوفود التي تدخل إلى مصر للحصول على الطعام ويجلس بنفسه لمقابلتهم، ثم يبدأ بسؤالهم من أين أتوا ومن أي عائلة هم، ويعامل الناس بالأدب والاحترام يختم بطاقاتهم دون إهانة: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [يوسف: 59]، وهكذا قضى يوسف على الاحتكار والبطالة والتسول بخطة عبقرية لم يسبق لها مثيل، واستطاع بفضل تواضعه أن يتعرّف على كل الناس حتى وصل إخوته فعرفهم وهم له منكرون.

وقد كانت خطة يوسف ترمي بأن يحضر كل من أراد الحصول على الطعام بضاعة من صنع بلده، تماماً كمبدأ المقايضة: الطعام مقابل البضاعة التي يحضرونها معهم.

يا مسلمين، اليد العليا خير من اليد السفلى، ورغم الأزمة الاقتصادية التي تمر بها البلاد رفض يوسف أن يعطيهم القمح دون بضاعة مقابلها، أي: دون إنتاج، وهكذا حل مشكلة البطالة أصبحت مصر والعالم العربي في عداد الدول المنتجة.

أرأيتم الصورة الآن؟! تحوّل يوسف من شاب كان مسجوناً الى شاب يقود الاقتصاد في العالم العربي نتيجة صبره وثباته، فقد استطاع بفضل كل هذا أن يصنع من المجاعة فرصة للنجاح في مصر، ومن البطالة خلية نحل لا تهدأ.

هذه هي قصّة سيدنا يوسف بمعانيها الجميلة والخطيرة معاً، فثباته الأخلاقي في وجه كل المصاعب التي واجهته، أوصلته الى النجاح بعد أربعين عاماً من المعاناة.

نتائج الثبات والصبر

كل الذين انحرفوا أخلاقياً في هذه القصة تابوا أو اعتذروا في النهاية إلى يوسف.

إخوته: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يوسف: 91].

زوجة العزيز: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾.

العزيز فقد وظيفته بعد أن أخفى الموضوع.

صاحب الثبات الأخلاقي ولو بعد أربعين سنة، هو من يكسب في النهاية: ﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾، ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾، ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾.

من هو مالك الملك؟! قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ [يوسف: 21]، انظر عندما يكون ربك معك، إن الله لا يُغلب أبداً، وهو معك يا صاحب الإصلاح، يا صاحب الصبر الإيجابي، يا صاحب ثبات الأخلاق.

غالب على أمره:

1 ـ غالب على أمره: يوم رماه إخوته في البئر، وهو الذي رباه والده إلى أن أصبح في عمر العشر سنوات حتى يخرج بأخلاق يعقوب وإبراهيم.

2 ـ غالب على أمره: يوم جعل السيارة يخطئون في الطريق

ويدخلون إلى وسط الصحراء ويخرجوه من البئر.

3 ـ غالب على أمره: عندما جعل السيارة يبيعونه إلى العزيز في مصر وكان وزيراً للاقتصاد، ورغم أنه كان عبداً في بيته ولكنه تعلم الاقتصاد.

4 ـ غالب على أمره: يوم رأى الملك الرؤيا.

5 ـ غالب على أمره: يوم ظلمته امرأة العزيز وسُجن، ثم طلب الملك مقابلته.

6 ـ غالب على أمره: يوم دخل ساقي الملك إلى السجن خطأً حتى يرى يوسف.

7 ـ غالب على أمره: يوم جعل مصر كلها والعالم العربي يحتاجون إليه حتى إخوته احتاجوا للذهاب إليه ليعيدوه إلى والده.

8 ـ غالب على أمره: يوم جعل يوسف يصل إلى الملك ويكون صاحب المبادرة التي أنقذت مصر والعالم العربي من المجاعة والبطالة.

فالله بيده الملك، أصلح والله معك، ماذا لو لم يتعلّم يوسف الاقتصاد في بيت العزيز، أو استسلم لامرأة العزيز وقام بالفاحشة، ولكن كان السجن أحب إليه حتى يصل ويصبح عزيز مصر، وعندما أصبح وزيراً لم يتكبّر بل قابل إخوته بتواضعه.

حركة الإصلاح هي التي أنجحته فعندما أصلح جعل الله الظروف لصالحه.

رسالتي الى طلاب الجامعات والمدارس وحديثي التخرج والعاطلين عن العمل، كونوا مستعدين لانتهاز الفرصة عندما تدق أبوابكم، فالله يرسل لكل واحد فرصة وهو غالب على أمره.

استعد مثل ما فعل يوسف، فالفرصة أتته بعد عشرين سنة، دون يأس أو قنوط فالآية تقول: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 87].

انتهت السورة... أتمنى أن تكون وصلت معانيها التي شملت وجوه عديدة من الحياة: العائلية، الاقتصادية، الاجتماعيّة، والعلاقات الزوجية. وليكن سيدنا يوسف قدوتك في حياتك، ففي قصّته تجد حلّاً لأي مشكلة تعترضك.

obeikandl.com